مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

تاريخ المهمشين في الغرب الإسلامي الوسيط من خلال كتابات الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش قضايا وإشكالات

محمد العساوي
أستاذ مادتي التاريخ والجغرافيا بالسلك الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق
المملكة المغربية

مُلَخّص

تميز البحث التاريخي غداة حصول المغرب على الاستقلال بمحاولات الباحثين المغاربة الرد على الكتابات الكولونيالية، ومحاولة الكشف عن حصيلة الاستعمار وآثاره على المجتمع والاقتصاد المغربيين، لكن في سنوات السبعينيات انتقل الدارسون والباحثون في علم التاريخ إلى الاهتمام بمواضيع أخرى، والتي يمكن تصنيفها إلى ثلاث اتجاهات رئيسة، الاتجاه الأول انكب في عملية تحقيق النصوص التاريخية، بينما الاتجاه الثاني ذهب إلى البحث في التاريخ العلائقي (أي تاريخ العلاقات المغربية بالدول الأخرى)، أما الاتجاه الثالث فاتخذ مسار البحث المونوغرافي كهدف له بُغية التأريخ لمختلف المناطق المغربية. كما تميزت هذه المرحلة كذلك بانتقال نوعي من حيث المادة المصدرية، إذ تم تجاوز المصادر الإرادية كالوثائق الرسمية وكتب الأخبار إلى الاعتماد على أجناس مصدرية لاإرادية (المصادر الدفينة) ككتب النوازل، والتراجم، والمناقب، والحسبة، والرحلات، وحتى الرواية الشفهية بالنسبة للتاريخ المعاصر. وخلال أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي، اقتحم المؤرخون مواضيع كانت في السابق حكرا على الجغرافيين والسوسيولوجيين والأنثروبولوجيين، وبرزت معها مجالات بحثية جديدة في الحقل التاريخي بمختلف حقبه لم تكن مطروحة في السابق والتي يمكن تصنيفها ضمن خانة "التاريخ الجديد"، الذي نادت به في أوربا مدرسة الحوليات خلال عشرينيات القرن الماضي، ومن الأسماء المغربية البارزة التي اقتحمت هذا المجال، وصنعت لنفسها مكانا متميزا في فضاء التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والذهني للغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، نجد الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، الذي انكب منذ سنوات في مشروع بحثي يرتكز على دراسة تاريخ الهامش والمهمشين بمختلف أطيافهم في هذه الرقعة الجغرافية من الوطن العربي، متسلحا بخلفية منهجية ونظريات أوربية، تقوم على لم الإشارات التاريخية المتناثرة هنا وهناك، والعمل على إخراجها إلى الوجود، بُغية تسليط المزيد من الأضواء على هذه الفئات الاجتماعية التي همشها التاريخ.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٠ مايو ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ مايو ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

المهمشين؛ الغرب الإسلامي؛ العصر الوسيط؛ إبراهيم القادري بوتشيش؛ التاريخ الجديد؛ المصادر الدفينة.

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2020.167559

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد العساوي. "تاريخ المهمشين في الغرب الإسلامي الوسيط من خلال كتابات الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش: قضايا وإشكالات".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ٧٨ – ٨٦.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: elaissaoui-mohamed@hotmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

ما زال موضوع التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والذهني للغرب الإسلامي، يكتنفه الكثير من الغموض، بسبب قلة المادة المصدرية التي اهتمت بمثل هكذا مواضيع، وإذا كانت هذه المعضلة تعد من المسلمات التي اعترف بها كل من عارك هذا الميدان، فإن المشكل يتعاظم ويزداد حدة بالنسبة للفئات المستضعفة التي ظلت مهمشة قابعة في زوايا الإهمال والنسيان، فحتى المصادر التي صمدت لقرون من الزمن، ووصلت إلينا سالمة لنستقي منها معلوماتنا هي في الغالب مصادر رسمية، لم تحفل سوى بالتاريخ السياسي والعسكري، وتاريخ الخلفاء والسلاطين وحاشيتهم، ووصف بلاطاتهم، أو ذكر مناقبهم ومحاسنهم التي وصلت أحيانا إلى حد المعجزات والخوارق[١].

أما الفئات المستضعفة فقد وقفت منهم هذه المصادر الرسمية موقفا مضادا، وصبت عليهم جام غضبها، معتبرة إياهم مجرد "أراذل" و"سفهاء" و"سفلة"...، بل إنها تفننت في تحايلها لتشويه مواقفهم، فنعتتهم ب "المروق" و"الخروج عن السنة والجماعة"...[٢]، ومن تم يتضح أن الإشكالية لا تكمن فقط في غياب المصادر والوثائق فحسب، بل حتى في طبيعة تلك المصادر التي تتوفر بين أيدي الباحثين اليوم، إذ أن مادتها تزخر بالتزييف والتحريف، وتنم عن الكراهية والتحامل، وتنطق بالتعصب والعداء.

والأدهى من ذلك، أن هذه الفئات المقهورة، لم تخلف لنا أثرًا تاريخيًا نستعين به لدحض التهم التي كال لهم الخصوم جزافا، أو نستجلي على الأقل أوضاعها، ومكوناتها الفكرية والإيديولوجية، وهذا الأمر هو الذي يفسر إحجام الباحثين عن الخوض في هذا الموضوع بميكانيزماته المعقدة، ومعوقاته الواضحة، غير أن مثل هذا الصمت لا يحل المشكل، بقدر ما يزيد في تجدره.

ولحسن الحظ، فإن بعض الباحثين اتجهوا في السنوات الأخيرة نحو محاولة الكشف عن جوانب من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وتاريخ الذهنيات في الغرب الإسلامي، معتمدين في ذلك على ما أسماه المؤرخ المغربي محمد المنوني[٣] (رحمه الله) بالمصادر الدفينة، التي تشمل كتب النوازل والفتاوى، والحسبة، والأمثال الشعبية، فضلا عن كتب الرحلات والطبقات والتراجم والفرق الكلامية، وكلها أدوات تساهم وبنفس الحجم في إيجاد حل لمعضلة التأريخ للطبقات المستضعفة التي ظلت على هامش التاريخ.

ومن الأسماء التي سطع نجمها في سماء التاريخ الاجتماعي والذهني للطبقات المهمشة في الغرب الإسلامي، نذكر الدكتور والباحث المغربي إبراهيم القادري بوتشيش الذي تمكن من رسم مسار بحثي كان بكرا في ساحة البحث التاريخي العربي، حيث يقول في هذا الصدد: "بدأ اهتمامنا بهذا المشروع - تاريخ المهمشين - منذ أواخر السبعينيات ضمن مشروع أكاديمي جامعي تبناه المفكر العربي المصري محمود إسماعيل من خلال إشرافه على مجموعة من الأطاريح التي أسفرت عن صدور عدد من المؤلفات لكل من كاتب هذه السطور والأساتذة الباحثين أحمد الطاهري وعبد الإله بنمليح وحسين خالد وغيرهم من الباحثين، لكن أول بحث نشرته في هذا المنحى صدر تحت عنوان "تاريخ المستضعفين في التاريخ الإسلامي: نموذج من الأندلس"، نشر بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، في عددها الأول سنة (١٩٨٦)، وما يزال هذا المشروع الأكاديمي متواصلا مع جملة من تلامذتي الذين نشروا مؤلفات وأبحاث تصب في هذا المجال"[٤].

وهكذا استطاع الأستاذ القادري بوتشيش بجده واجتهاده وتكوينه المتميز في تسليط المزيد من الأضواء على مواضيع ظلت في الأمس القريب ضمن المسكوت عنه في تاريخ الغرب الإسلامي، مستعينا بخلفية منهجية ونظريات أوربية فيما ما اصطلح عليه بـ "التاريخ الجديد" الذي قاده ثلة من المؤرخين الأوربيين أمثال لوسيان فافر ومارك بلوخ، محدثين ثورة في دائرة البحث التاريخي، وذلك من خلال نهج توجه جديد سنة (١٩٢٩) سمي بـ "مدرسة الحوليات"، وهذا المسار المستحدث هو بمثابة "تاريخ من أسفل" أي أنه يركز على دراسة تاريخ المجتمعات ومعتقداتهم وسلوكهم وحياتهم اليومية...، بعيدا عن تاريخ الطبقة الحاكمة وما يحيط بها من أمور سياسية وعسكرية، وللإحاطة بالموضوع ومحاصرته قدر الإمكان فقد تم اختيار الإشكاليات التالية: من هم المهمشون؟ ولماذا غيبتهم المصادر التاريخية؟ وما الصعوبات والتحديات التي تواجه الباحثين الذين يلجون عوالم هذه الفئة؟ وإلى أي حد ساهمت كتابات الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش في الكشف عن تاريخ الهامش والمهمشين في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط؟

أولاً: ورقة تعريفية بالأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش

١/١-المولد والنشأة والمسار العلمي:

ولد الباحث إبراهيم القادري بوتشيش سنة (١٩٥٥) بالمغرب، حصل على الإجازة في الآداب -تخصص تاريخ وجغرافيا - من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بمدينة فاس سنة (١٩٧٧)، وعلى شهادة الدراسات العليا في التاريخ الوسيط من نفس الجامعة سنة (١٩٧٨)، وعلى شهادة السنة الثانية من شعبة العلوم السياسية ـ فرع القانون العام -، من نفس الجامعة أيضا سنة (١٩٧٩)، وعلى شهادة الكفاءة التربوية، من المدرسة العُليا للأساتذة بالرباط (١٩٧٩)، وعلى دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ الوسيط، من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس سنة (١٩٨٤)، وعلى دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي الوسيط من جامعة مولاي إسماعيل بمدينة مكناس سنة (١٩٩١)[٥].

١/٢-المناصب التي تقلدها:

- أستاذ ممارس: تخصص التاريخ الإسلامي الوسيط بجامعة مولاي إسماعيل بمدينة مكناس.
- عضو جمعية أساتذة التاريخ والجغرافيا بمكناس.
- عضو هيئة تحرير مجلة "مكناسة" الصادرة عن كلية الآداب بمكناس.
- مستشار في جمعية المؤرخين المغاربة بالرباط.
- رئيس وحدة البحث والتكوين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي.
- رئيس المجموعة المغاربية للدراسات التاريخية والأثرية والحضارات المقارنة.
- عضو جمعية الباحثين في الغرب الإسلامي.
- مشرف على رسائل وأطروحات جامعية.
- عضو الجمعية المغربية للبحث التاريخي.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- عضو الجمعية الإفريقية لدراسات تاريخ الأديان.
- عمل أستاذا زائرًا في جامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان وجامعة صنعاء، والجامعة التونسية، ومحاضرا في بعض الجامعات الفرنسية[٦].

١/٣-إنجازاته العلمية:

للأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش إنتاج غزير في مجال التاريخ والفكر، حيث ألّف عشرين كتابا، وما يزيد على مائتي بحث منشور في مجلات محكّمة يصب معظمها في تاريخ المهمشين ومجال المتخيل والتمثلات الشعبية وحركات المعارضة، وهو متميز بمنظوره التجديدي في قراءة التاريخ، وبتطوير مناهجه التي جعلته يحصل على جوائز علمية عديدة سنوات (٢٠٠٣، ٢٠٠٤، ٢٠٠٥، ٢٠٠٨، ٢٠١٥)، كما له مساهمات كثيرة في عدد من المؤتمرات داخل المغرب، وفي العالم العربي وأوربا وآسيا وأميركا[٧].

ومن أشهر مؤلفاته نذكر:

- إسهامات في التاريخ الاقتصادي -الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط.
- خطاب العدالة في كتب الآداب السلطانية.
- المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل.
- مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين.
- التصوف السني في تاريخ المغرب.
- حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي.
- بين أخلاقيات العرب وذهنيات الغرب.
- إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي.
- مستقبل الكتابة التاريخية في عصر العولمة والأنترنت.
- الإسلام السري بالمغرب العربي.

ثانيًا: المهمشون في الغرب الإسلامي (قضايا وإشكالات)

٢/١-المهمشون وإشكالية المصطلح:

يشكل موضوع المهمشين خطابا جديدا لقراءة وفهم التاريخ، ويفتح أبوابا كانت موصدة فيما قبل على المؤرخ، فهذه الفئة اختلف المؤرخون في مسمياتها، فبالإضافة إلى المهمشين، هناك من يطلق عليها "المنسيين" أو "المستضعفين" أو "تاريخ من لا صوت لهم" أو "التاريخ الصامت" أو "التاريخ المسكوت عنه" أو "تاريخ العامة" أو "التاريخ من أسفل"، ومن هنا يمكننا طرح التساؤل الآتي: من هم المهمشون؟

يقر كل الدارسين لتاريخ المهمشين ومن ضمنهم "جان كلود سميث" (J.C.Smith)[٨] بصعوبة تحديد معنى دقيق للمهمش، وذلك بسبب تعدد مستوياته المتراوحة بين مستوى التموقع

الشكلي داخل المجتمع، وبين مستويي الإقصاء الكلي من المجتمع أو الاندماج فيه، وإن كان يرجح في موضع آخر أن مفهوم الهامشي يتأسس على التاريخ الذي ينطلق من "المركز" أي التاريخ الذي لا يحتسب إلا الأدوار التي قامت بها نخب السلطة والثروة والنخبة العالمة، وهو مفهوم يؤثث منظوره على أساس أن المركز يشكل مصدر التحكم في رسم معايير الأخطاء والانحرافات الأخلاقية وغيرها من النظم القيمية التي تبنى عليها منطلقات المؤرخ ومواقفه من الهامشيين[٩]، لذلك حق له القول إنه "لا يمكن انطلاقًا من المركز أن ننظر إلى مجتمع بأكمله، ولا أن نكتب تاريخه بطريقة أخرى إلا بإعادة الخطاب الاجماعي للماسكين بالسلطة... والتساؤل عن المنبوذين والصامتين في التاريخ التقليدي"[١٠].

ومن هذه النظرة ل "جان كلود سميث" نجد الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش يشاطره الرأي في أن قراءة التاريخ انطلاقا من المركز تفرز تاريخا مبتورا يتمحور حول السلطة، ويقصي تاريخ الفئات الصامتة، إلا أن الباحث لا يقتصر على هذا المفهوم في شكله العائم لسبب بسيط، وهو أن بعض الحالات في التاريخ سجلت تهميش حتى بعض النماذج المنتمية إلى خانة النفوذ والجاه والسلطة[١١]، بناء على قاعدة أن التاريخ يكتبه المنتصرون[١٢].

لذلك يعتقد القادري بوتشيش أن مفهوم المهمش يمكن أن يتمطط ليشمل كل "المغضوب عليهم" من جانب السلطة، سواء كانوا من تلك الفئات المنبوذة التي ظل صوتها مكتوما، أو تلك التي تم تحويل صوتها مع مجيئ الغازي والمنتصر إلى صوت مبحوح طواه الزمن، وبكلمات أخرى فإن مفهوم المهمش لا يستند على مقولة قراءة "التاريخ من أسفل" فحسب بل يشمل كل من أُقصي من الكتابة التاريخية[١٣].

٢/٢-المهمشون وإشكالية تغييبهم في المصادر التاريخية:

لفهم ظاهرة تغييب تاريخ الهامش والمهمشين بالغرب الإسلامي سواء عن قصد أو بدون قصد، لابد من استحضار نص يشكل النموذج المهيمن في الكتابة التاريخية الوسيطية، كتبه المؤرخ المغربي "ابن أبي زرع الفاسي" (القرن الثامن الهجري) في مؤلفه المُعنون ب "الأنيس المُطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، إذ يقول فيه واصفا الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين: "صفته: أسمر اللون نقي، معتدل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، رقيق الصوت، أكحل العينين، أقنا الأنف، له وفرة تبلغ شحمة أذنيه، مقرون الحاجبين، جعد الشعر، وكان رحمه الله بطلاً نجدًا شجاعًا حاسمًا مهابًا ضابطًا لملكه..."[١٤]، ويستمر هذا الوصف الدقيق لشخصية يوسف بن تاشفين أكثر من صفحتين.

إن الشكل السردي الذي قدمه هذا المؤرخ في وصف الحاكم المرابطي، وهو النموذج الذي سار على هديه معظم المؤرخين العرب – باستثناء الفرقة الناجية منهم وهم أقلية – يعكس خللا واضحا في المنهج التاريخي، ففي الوقت الذي وصف الخليفة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، مع ذكر الجزئيات الدقيقة من ملامح وجهه، لم يتعامل بنفس السخاء مع شرائح المجتمع المهمشة من فلاحين ورعاة وحرفيين، بل لم يكتب ولو كلمة واحدة حول المتشردين والمنبوذين والمتسولين.

ولا شك أن العلامة ابن خلدون فطن إلى القصور الحاصل في المنهج التاريخي العربي، من خلال انتقاده للتاريخ السلطاني وإدانته لإقصاء تاريخ المهمشين، فأعاد طرح السؤال المنهجي حول جدوى الكتابة التاريخية، وموقع المهمشين فيها[١٥]، وهو ما يتجلى من خلال تمريره إشارتين متشبعتين بحمولات دلالية وردتا ضمن النصوص المقدمة، محدثا بذلك هزة عنيفة في مسار التاريخ السلطاني المألوف والمتواتر:

- تتمثل الإشارة الأولى في انتقاده اللاذع لمنهجية التاريخ السلطاني المتحكمة في إنتاجات أقرانه من المؤرخين، والتي أفرزت "ذهنية بلاطية" متفننة في سرد تاريخ الحاكم، فقد عاب عليهم إطنابهم في وصفه ووصف حاشيته وشارات ملكه، والإغراق في "الثرثرة" الإنشائية من خلال ذكر تفاصيل الجزئيات عما كتب في نقش خاتمه ووصف ثيابه، لذلك وصفهم ب "التقليد والغفلة" لأنهم أغفلوا ذكر من أسماهم ب "صانعي وسائل المعاش"، أي ما نسميهم نحن بالقطاعات المهمشة[١٦].

- أما الإشارة الثانية فتكمن في إحالته على المؤرخ المسعودي كرمز ونموذج للمؤرخ المحترف الذي يمتلك ناصية المنهجية التاريخية السليمة، خاصة في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" الذي شرح فيه – حسب ابن خلدون نفسه – "أحوال الأمم وذكر نحلهم وعوائدهم، ووصف الجبال والبحار وفرق شعوب العرب والعجم فصار إماما للمؤرخين"[١٧]، بمعنى أن ابن خلدون يحيل في تصوره المنهجي النموذجي على التاريخ الكلي الذي عبر عنه ب "أحوال الأمم"، كما يشيد في هذا التصور النموذجي أيضا بأهمية دراسة العوائد والطباع والسلوك عند الأمم، وكذلك دراسة مجال البحر والجبل وتأثيرهما في العوائد.

يُعَدّ بيان رأي ابن خلدون -الداعي إلى تأسيس منهج جديد لدراسة الشعوب والأمم – أول صيحة منهجية فطنت إلى أهمية دراسة تاريخ المهمشين، ومقابل ذلك فإنه انتقد بشدة تهاونات مدرسة التاريخ السلطاني، واعتبرها مسؤولة عن تغييب قوى فاعلة، وعدم استحضار ذهنيات مجتمعية، وعادات وتقاليد يمكن من خلالها رؤية التاريخ رؤية سليمة، وهو ما يعكس وقوفه على خلل طال منهج التاريخ العربي – الإسلامي، يكمن سببه الأساسي في طمس تاريخ الفئات المهمشة.

وعلى محك هذا الطرح الخلدوني حاول الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش تفسير إهمال تاريخ الهامش والمهمشين من قبل المصادر التاريخية الوسيطية في الغرب الإسلامي، وأعزاها إلى العوامل الآتية:

- **عوامل الطمس والتعتيم المتعمد:** تميز مؤرخ السلطة بنظرة سطحية لاقتصاره على جمع أحداث تاريخية وعسكرية وتدوينها من دون استنطاق مكوناتها وتجلياتها، لذلك يوضح القادري بوتشيش أنه على الرغم من الأدوار الشامخة التي قامت بها شرائح المجتمع المهمشة داخل مجتمعاتها، فإنها لم تذكر في المصادر التقليدية إلا بنصف الكلمات، وهذا أمر بديهي إذا وضعنا في الحسبان موقع المؤرخ الاجتماعي، وموقفه من صراع الحاكم والمحكوم، والتوتر الذي ميز علاقة الطرفين، إضافة إلى مكوناته الثقافية ونظرته القاصرة إلى التاريخ[18].

- **عامل سياسي:** بقي المؤرخ حبيس رؤية البلاط للآخر، ذلك أنه ليس له حرية ومنطلق معينان ومبادئ شخصية يلتزم بها، بل يُردد ما يقوله السلطان[19].

- **عامل الرقابة:** شكل تحديا بالنسبة للمؤرخ، وهكذا راح يسعى في كتاباته إلى التركيز على هذا العامل، وإقصاء كل ما يخالفه، وهو أمر جعله يُصنّف محاولات الخروج على السلطة بوصفها مساسا بوحدة الدولة وتماسكها، وانطلاقًا من هذه الرؤية صنف مؤرخو السلطان المهمشين ضمن الفاسقين والرعاع[20]، وهو أسلوب "ذكي" في الظلم وعدم الإنصاف، ما يفرض على الباحث النزيه إعادة تقييم هذه الحركات المظلومة بنقد ما هو متواتر وخلخلته، وإعادة الدراسة والتحليل انطلاقًا من نظرة شمولية تربط هذه الحركات بواقعها، وبالمعتقدات والنظم السائدة[21].

- **عامل التفسير الديني**: ذلك أن مؤرخ السلطان غالبًا ما يفسر الأحداث انطلاقًا من خلفية دينية، فيحصر الحدث التاريخي ويقرؤه من زاوية العناية الإلاهية[22].

- **عامل التفسير الفردي للأحداث التاريخية**: ينطلق المؤرخ من منطلق تقديس الحاكم وجعله مدار الأحداث التاريخية والبطل الوحيد والقائد المحنك صاحب الانتصارات المدوية[23].

ثالثًا: تاريخ المهمشين في كتابات الأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش. كتاب "تاريخ المستضعفين: نماذج من الغرب الإسلامي أو الإسلام السري بالمغرب العربي – أنموذجًا"

يتكون هذا الكتاب من عشر دراسات تَسع لـ (٢٤٦) صفحة من الحجم الصغير، وهو عبارة عن مجموع مقالات كتبها المؤلف في مناسبات مختلفة وارتأى نشرها في كتاب واحد، وهو أمر له ما يبرره، فالمواضيع يجمع بعضها خيط رابط، باعتبار مقاربة المؤلف التي أرادها متميزة وأصيلة وباعتبار نوعية القضايا التي أثارها، وهي مواضيع كلها تصب في التاريخ الاجتماعي والذهني للفئات المهمشة في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، أما محاور هذا الكتاب فجاءت وفق الشكل التالي:

١/٣-حركة المتنبئين والسحرة في الغرب الإسلامي (إعادة تقويم لحركة حاميم خلال القرن الرابع الهجري):

أراد المؤلف من هذا البحث أن يربط ظهور هذه الديانة بالسياق العام لتاريخ المغرب، وبعد استعراض آراء مختلف الباحثين الذين تطرقوا للموضوع، يقترح قراءة جديدة تتناول العوامل الاقتصادية والثقافية والمحلية، علاوة على السياق العام للتاريخ الإسلامي وضعف الخلافة، ثم ينصب بعد ذلك على دراسة ديانة حاميم ونبوءته في محور ثان، مستخلصًا في نهايته مجموعة من الأسباب التي أدت إلى توقف هذه التجربة[24].

٢/٣-الحركة المسرية: بين الواقع ومحاولات التزييف:

هناك عدة حركات لثوار في الغرب الإسلامي نجحوا إلى حد بعيد في مناهضتهم للدول، ومن بينها الحركة المسرية التي لعبت دورا متميزا في تاريخ الأندلس السياسي والمذهبي، ونجحت في زعزعة الحكم الأموي بقرطبة، وقاد هذه الثورة محمد بن عبد الله بن نجيع ابن مسرة وهو من الموالي، اشتهر بالعلم وبالاطلاع الواسع على مختلف المعارف من فلسفة وطب وتصوف وكلام.

وقد تزعم ابن مسرة حركة مناهضة للإقطاعية السائدة بالأندلس، والتي تسببت في تزايد الفوارق الاجتماعية، كما كان عليه، وهو المتصوف الزاهد أن يواجه المذهب المالكي الرسمي

ويعلن حربا ضد حكومة قرطبة، فاتُّهِم بالزندقة وهو بريء منها، وقد اتخذت الحركة المسرية صبغة دينية، لكنها حملت بعدًا اجتماعيًا[٢٥].

٣/٣-حركة علي بن يدر من خلال مراجعة جديدة:

ثمة حركات في تاريخ المغرب، لا تزال تلفها سحب كثيفة من الغموض، رغم المكانة المهمة التي احتلتها في خريطة الصراعات السياسية، والبصمات الواضحة التي نحتتها في مسار التاريخ المغربي، ومن هذا القبيل، حركة علي بن يدر الهنتاتي الزكندرى التي اندلعت في أواخر العصر الموحدي، واستمرت خلال العصر المريني الأول، وانتهت بتأسيس إمارة مستقلة في الجنوب دامت ما يربو على الثمانين سنة، مشكلة بذلك معلمة أساسية تستحق الدراسة والاستقصاء.

ومع ما يمثله هذا الحدث التاريخي من أهمية، فإن الأسطوغرافيا التقليدية لم تخصص له سوى إشارات باهتة، وأخبار متفرقة ومقتضبة، أما بعض التفاصيل التي كتبت حول حركة بن يدر، فإنها وردت بكيفية عفوية من أقلام بعض المؤرخين، أثناء سردهم لأخبار صراع الأمراء الموحدين والمرينيين معها، وهي على كل حال، لم تتجاوز مستوى القذف والشتم، وكل ما يفوح برائحة المقت والكراهية، ولا غرو فقد كالوا لزعيمها كل العبارات المستهجنة، فنعتوه ب "اللغوى" و "المنافق" و "المفسد"، وعدوا أنصاره في جملة "الأشقياء" و"المخربين"، ونحو ذلك من أساليب اللوم وعبارات الذم الأخلاقي.

من هذا المنطلق المتعصب، يجد الدارس اليوم نفسه أمام إشكالية حقيقية كلما حاول أن يستنطق النصوص حول أهداف الحركة وحوافزها، وأسسها الإيديولوجية، وكذا النظام الذي تبنته في مرحلة بسط سلطتها على جزء مهم من الجنوب المغربي، فالمصادر لاذت بالصمت تجاه هذه القضايا، باستثناء شذرات متناثرة تخص بدايتها الأولى.

ومن هنا يقر الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش على أن كل من عارض النظام في تاريخ الغرب الإسلامي يمكن اعتباره ضمن خانة "المهمشين"، أي أن هذه الطبقة لا تندرج ضمنها فقط الفئات الدنيا من المجتمع كما هو شائع، بل حتى الذين كان لهم نفوذ ولم يؤرخ لهم، والأخطر من ذلك أن بعض المؤرخين المشهورين اتهموهم ووصفوهم بألقاب الدونية والكراهية، ليس لسبب منطقي سوى أنهم عارضوا بأفكارهم الأنظمة الحاكمة[٢٦].

٤/٣-الحركة الحفصونية: مقاربة على ضوء النمط الإقطاعي:

يشير المؤلف في بداية هذا البحث إلى أن المصادر الأندلسية اعتبرت حركة ابن حفصون كحركة شغب وتمرد، وأن الدراسات المعاصرة تناولت الموضوع من زاوية عنصرية صرفة باعتبارها مؤشرًا على يقظة الوعي الإسباني، ويميل المؤلف إلى اعتبار الحركة إفرازًا لانتفاضة فلاحين وأقنان ناهضوا الظلم المسلط عليهم، ولإثبات ذلك يقوم الباحث بدراسة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية على ضوء النمط الإقطاعي السائد[٢٧].

٥/٣-الجوانب الخفية في حركة التصوف وكرامات الأولياء بالمغرب (العصر المرابطي والموحدي نموذجًا):

منذ البداية يعلن الباحث اختلافه مع بقية الباحثين الذين تناولوا موضوع الكرامات، التي يرى أنها تمثل في الواقع نتاجا اجتماعيا، ثم بعدها تطرق إلى مختلف الفئات التي تبنت الكرامة، مشيرا إلى أن كرامات الأولياء هي إفراز لمرحلة ظلامية توافق أحوال الأزمات، وانطلاقًا من ذلك يقوم القادري بوتشيش بتحليل أوضاع المغرب على عهد الدولتين المرابطية والموحدية خصوصًا خلال فترات الأزمة، وهو ما سمح له باستنتاج أن الخطاب الكرامي هو انعكاس لفكر قاعدي جماهيري أتى بحلول لبناء المجتمع الأمثل، ولتوضيح كلامه يقترح الباحث تحليلاً سيميائيًا لبعض الكرامات التي تتكرر في المتون المناقبية كالحج والوضوء والمشي على الماء وتحويل التراب إلى ذهب.

إن وظيفة الكرامة إيديولوجية بالأساس وتهدف إلى الدفاع عن المضطهدين وأدب المناقب يعكس القطيعة بين الدولة والمجتمع من جهة ويشتغل ككابح للنزوات المادية التي يتميز بها الجمهور[٢٨].

٦/٣-الأيتام في الأندلس من خلال وثيقة تعود إلى العصر المرابطي:

اعتمد الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش للحديث عن هذه الفئة على وثيقة استقاها من نوازل ابن الحاج، وهي عبارة عن عقد إشهاد يخص يتيمة وضعها أبوها تحت وصاية رجل، ومن تم جعل هذه الوثيقة كأرضية لتفسير تغييب الأيتام في المصادر التاريخية، معتبرًا أن نظرة المجتمع لهم ك "قاصرين" يعيشون تحت الوصاية، وبالتالي لم يكن بمقدورهم لعب أي دور إن على صعيد الإنتاج الاقتصادي، أو على المستوى الثقافي والسياسي، ومن ثم لم يظفروا بالتفاتة مهمة من جانب المؤرخين[٢٩].

٣/٧-المتسولون في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين:

أكد المؤلف أن أوضاع القرن السادس الهجري أدت إلى حصول تحولات اقتصادية زادت من استفحال الفوارق الطبقية وكان من نتائجها ظهور شريحة المتسولين، وبعد رصد أعدادهم المتزايدة وأماكن تجمعهم وأدوار المحسنين والمتصوفة يخلص المؤلف إلى أن موقف المرابطين والموحدين ظل سلميا ولم يبذلا أي مجهود لاستئصال شآفة ظاهرة التسول[٣٠].

٣/٨-العوام في مراكش خلال القرن السادس الهجري: نماذج من تاريخ المستضعفين في حواضر الغرب الإسلامي:

تم تهميش تاريخ العوام في هذه المدينة، وهو أمر راجع حسب رأي القادري بوتشيش إلى شح النصوص، وتناثرها بين أمهات المصادر فضلا عن ندرة المصنفات التاريخية المونوغرافية الخاصة بمدينة مراكش خلال العصرين المرابطي والموحدي، ناهيك عن كون قسط وافر من مصادر تاريخ المغرب العام لذات الحقبة قد عفا عنها الزمن. إن المخيال الاجتماعي خلال العصر الوسيط نظر إلى هذه الفئة بكونها **"سواد الناس"** الذين لا يملكون السلطة، ويعيشون في عالم له أبعاده الفكرية والدينية التي تتدنى عن مستوى "عالم الخاصة"، ومن ثم فإن إهمالهم وتهميشهم يظل مسألة مشروعة حسب هذه النظرة الضيقة[٣١].

٣/٩-لماذا غُيِّبت الفئات الشعبية من تاريخ المغرب الشرقي الوسيط؟:

يبدأ الباحث حديثه في هذا البحث بطرح جملة من الإشكالات الجوهرية من قبيل: هل ثمة مشروعية لتغييب تاريخ الفئات الشعبية من طرف مؤرخي العصور الوسطى؟ ألأنهم لم يلعبوا دورا أساسيا في تاريخ المنطقة؟ ألأنهم شكلوا تيارا مضادا يعوق تطورها؟ إذا كان الأمر كذلك فمن حق المؤرخين أن يهملوهم وأن يدينوهم، ولكن الثابت من خلال الإشارات المتناثرة التي وردت بكيفية عفوية من طرف هؤلاء المؤرخين أنفسهم، أنهم لعبوا دورًا طلائعيًا في تاريخ المنطقة.

فمما لا شك فيه أن جماهير المغرب الشرقي كانوا أول من اعتنق الإسلام في المغرب الأقصى، بل إنهم شكلوا جند الحملة الثانية التي قادها عقبة بن نافع أثناء توغله في المغرب، وأصبحوا المدافعين المتحمسين عن العقيدة الجديدة التي جاءت تحمل بين طياتها فكرة المساواتية وإلغاء الاستغلال الطبقي.

ومن هذا المنطلق ساهموا في الثورات الخارجية التي عمت طول بلاد المغرب وعرضها، ولم يتقاعسوا عن إبراز رد الفعل السياسي تجاه بعض الولاة الذين انحرفوا عن جادة الإسلام. كما أن جماهير المغرب الشرقي كونوا لحمة حركة زيري بن عطية وحملاته العسكرية، ففي الوقت الذي اجتاحت جيوشه المغرب الأوسط لمداهمة بادس بن منصور بن بلكين انطلق من مدينة وجدة، ومن هناك استنفر القبائل الزناتية.

وغني عن القول إن دعم جماهير المغرب الشرقي لحركة ابن تومرت، ومشاركتهم الفعالة في الصراع ضد بني عبد الواد، ومقارعة الأخطار الأجنبية، حقائق تجعل منهم قطاعا يستحق الدخول في التاريخ، لا التهميش والنسيان كما فعل المؤرخون، إذن فلماذا هذا التغييب؟

حاول القادري بوتشيش الإجابة على هذه الأسئلة التي ظلت عالقة من منظوره الشخصي، إذ اعتبر المشكل الأول يكمن في الموقع الجغرافي للمغرب الشرقي، وحاضرته الأولى مدينة وجدة التي ظلت في تاريخ المغرب الوسيط ضمن المناطق المهمشة، ولم تحظى باهتمام كبير من المؤرخين، بخلاف مدن أخرى كفاس ومراكش والرباط، وما زاد في إهمالها هو دورها العسكري الذي اضطلعت به على مر العصور الشيء الذي جعلها تدخل في عداد "مدن الحصون" الثغرية من وجهة نظر المؤرخين، لا مدن العلم والحضارة، ومن ثم لم توجه عناية إليها، أما المشكل الثاني فيكمن في الفئات الشعبية نفسها حيث لم تخلف لنا أثرًا، نستعين به لدراسة أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية، وفهم مكوناتها الفكرية والإيديولوجية[٣٢].

٣/١٠-مسألة العبيد بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين:

يبتدئ المؤلف هذا البحث بوضع المسألة في إطار الإنتاج التاريخي، وبعد التعريف بالنعوت التي عُرف بها العبيد في المصادر يتطرق إلى الأسباب الكامنة وراء وجودهم بالمغرب، فقد توفرت الدولة المرابطية على أعداد مهمة منهم، حصلوا عليهم بطرق مختلفة، وكان العبيد يعيشون أوضاع خضوع تام، ويعملون بشكل مضن لا يخلو من استغلال لكنهم كانوا مستكينين قابلين بأوضاعهم، وقليلاً ما يفرون[٣٣].

خَاتِمَةٌ

نستخلص مما سبق ذكره؛ أن الأستاذ الدكتور والمؤرخ المغربي إبراهيم القادري بوتشيش بمؤلفاته وكتاباته القيمة، قد أحدث ثورة في مجال البحث التاريخي للغرب الإسلامي، وذلك بانقلابه على التاريخ التقليدي الذي اهتم بمواضيع سياسية وعسكرية وبتاريخ الخلفاء والسلاطين وحاشيتهم وشؤون البلاطات، ليدشن توجهًا جديدًا يعتمد على التأريخ للفئات الحقيقية التي صنعت التاريخ والمتمثلة في فئة المهمشين بمختلف أطيافها، كما انقلب أيضًا على المادة المصدرية بتجاوزه المصادر التاريخية الإرادية (كتب التاريخ العام) ليعتمد على المصادر اللاإرادية (المصادر الدفينة) بمختلف أنواعها عن طريق جمع كل الإشارات المتناثرة هنا وهناك التي تفيد البحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والذهني.

الهَوامِشُ:

(١) يشير الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش في هذه النقطة إلى أن أغلب المصادر التاريخية كُتبت تملقا للخلفاء والوزراء والأعيان، ولعل قراءة المقدمات التي يشير من خلالها المؤرخون إلى دواعي تأليف كتبهم تنهض حجة على ذلك، ومن الأمثلة على ذلك في تاريخ المغرب نذكر: المؤرخ ابن أبي زرع الذي صرح أنه ألف كتابه "روض القرطاس" خدمة للدولة المرينية في عهد أبي سعد عثمان بقوله: "أردت خدمة جمالها، والتقرب إلى كمالها، والتفيأ بظلالها... بتأليف كتاب جامع للطيف الأخبار..."، أما لسان الدين ابن الخطيب فقد ألف "أعمال الأعلام" ترضية لحاميه السلطان، وسيده الوزير الوصي أبو زيان محمد السعيد، والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ المغرب.

(٢) القادري بوتشيش إبراهيم، **"أوضاع الفئات المستضعفة في العصر الإسلامي الوسيط: نموذج من الأندلس"**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، العدد.١، ١٩٨٦، ص.٣٨.

(٣) انظر كتاب الأستاذ المنوني محمد، **"المصادر العربية لتاريخ المغرب: من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث"**، الجزء.١، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٨٣.

(٤) القادري بوتشيش إبراهيم، **"من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين: نظرات في تجديد الأدوات المنهجية للمؤرخ"**، مقال منشور ضمن أعمال مؤتمر "دراسة المجالات الاجتماعية المهمشة في تاريخ المغرب"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية -ابن مسيك-، مختبر المغرب والعوالم المغربية، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص.٤٩.

(٥) الموسوعة الحرة "ويكيبيديا"، متاح على الرابط التالي: https://ar.wikipedia.org/wiki/إبراهيم_القادري_بوتشيش

(٦) المرجع نفسه.

(٧) مقال بعنوان "**تطوان تكرم المؤرخ المغربي إبراهيم القادري بوتشيش**"، منشور في الجريدة الإلكترونية بريس تطوان، بتاريخ: ٥ أبريل ٢٠١٨، متاح على الرابط التالي: https://presstetouan.com/news28383.html

(8) **"التاريخ الجديد"**، إشراف جاك لوغوف، ترجمة وتقديم: محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧، ص.٤٤١.

(٩) المرجع نفسه، ص.٤٣٧.

(١٠) المرجع نفسه، صص.٤٣٨-٤٣٩.

(١١) القادري بوتشيش إبراهيم، **"من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين: نظرات في تجديد الأدوات المنهجية للمؤرخ"**، مرجع سابق، ص.٥١.

(١٢) يُنظر على سبيل المثال التهميش الذي طال بعض الأمراء والزعماء البربر كالأميرين البربريين كسيلة والكاهنة من جانب الأسطوغرافيا العربية.

(١٣) القادري بوتشيش إبراهيم، **"من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين: نظرات في تجديد الأدوات المنهجية للمؤرخ"**، مرجع سابق، ص.٥١.

(١٤) ابن أبي زرع، **"الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"**، تحقيق: عبد الوهاب بن

منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص.١٥٦.

(١٥) القادري بوتشيش إبراهيم، **"من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين: نظرات في تجديد الأدوات المنهجية للمؤرخ"**، مرجع سابق، ص.٥٣.

(١٦) ابن خلدون عبد الرحمن، **"المقدمة"**، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩، ص.٢٦.

(١٧) المصدر نفسه، ص.٢٧.

(18) القادري بوتشيش إبراهيم، **"المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل"**، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٤، ص.٢٧.

(١٩) المرجع نفسه، ص.٢٨.

(٢٠) المرجع نفسه، صص.٣٠-٣١.

(٢١) بلعربي خالد، **"مسار التجديد في الكتابة التاريخية عند إبراهيم القادري بوتشيش، قراءة في كتاب المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل"**، مجلة أسطور، العدد.١٠، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، يوليوز ٢٠١٩، ص.١٧٦.

(٢٢) القادري بوتشيش إبراهيم، **"المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل"**، مرجع سابق، ص.٣١.

(٢٣) المرجع نفسه.

(٢٤) القادري بوتشيش إبراهيم، **"الإسلام السري في المغرب العربي"**، ط.١، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص.١١-٤٤.

(٢٥) المرجع نفسه، ص.٤٥-٦٦.

(٢٦) المرجع نفسه، ص.٦٧-٩٠.

(٢٧) المرجع نفسه، ص.٩١-١٢٨.

(٢٨) المرجع نفسه، ص.١٢٩-١٤٨.

(٢٩) المرجع نفسه، ص.١٤٩-١٥٨.

(٣٠) المرجع نفسه، ص.١٥٩-١٧٢.

(٣١) المرجع نفسه، ص.١٧٣-٢٠٠.

(٣٢) المرجع نفسه، ص.٢٠١-٢٢٦.

(٣٣) المرجع نفسه، ص.٢٢٧-٢٤٤.